

كلنا يحمل في داخله «إيثاكا» يخفيها عن الآخرين

يوسف وقاص.. الصوت المهاجر بين صفتين



الكاتب والمترجم السوري يوسف وقاص قليل الكلام، ثاقب النظرة وثابت الملامح، وقد يوحي ذلك للوهلة الأولى بأنه شديد متراساً يحتمي خلفه ليحصول دون اقتحام الآخرين لعالمه. لكن ما إن تحدّث معه -ولو كان ذلك للمرة الأولى- حتى تكتشف أن وراء ذلك الثبات قلباً طرياً، وما "التمترس" ذلك إلا نتج زاهد لأهوال اختزنها في قلبه وعقله، كالملايين من السوريين والعراقيين، وغيرهم من البشر الذين داستهم أهوال الحرب والصراعات والعنف. وفي هذا الحوار مع الكاتب والمترجم تتعرف على عوالمه الإبداعية وتفصيل هامة ومؤثرة من حياته.

بيرين بيرسايفيلي فوت
كاتبة تركية

ثم كانت هناك القصص العجيبة التي كان الناس يتداولونها في المقاهي والأسواق حول البيارق التي كانت تطير أثناء الموكب الدينية من مزار إلى مزار، والمخلوقات الغريبة التي تظهر في ليالي الشتاء الحالكة وتسلب الأفكار من عقول الأشخاص، فتراهم يعانون من الخرف (كان مرض الزهايمر المبكر غير معروف بعد، على الأقل لدينا) ويهييوسون على وجوههم في البراري للبحث عن ذواتهم التي سرقها الشيطان في لحظة سهو، أو نتيجة عمل أديم ارتكبه خلسة لتحل عليهم لعنة النسيان إلى أباد الأبد.

كل هذه القصص كانت تثير في داخلي الأسئلة، وتدفعني إلى البحث والاستقصاء، وهذا ما كان يجعلني أقضي معظم وقتي مع الكتب، والتعرف في وقت مبكر على أفكار كبار الكتاب والفلاسفة. إلا أن هذا الحماس كان ينطفئ من وقت إلى آخر؛ فقد اضطرت إلى العمل في سن يافعة، في سن الثانية عشرة، لإعالة إخوتي بعد وفاة والدي.

كانت البداية مع الحجاج الأتراك الذين كانوا يتوافدون على المقهى الذي كنا نملكه بعد عبورهم الحدود. كانت تستهويني عاداتهم، ألبستهم، لهجاتهم المختلفة، وفوق ذلك هوسهم بتناول الشاي مع الخبز الطازج والمتمر والبصل الأخضر. كنت أصغي إلى حكاياتهم بانتباه شديد، وكانوا يبدون حنواً بالغاً تجاهي، حتى أن جلمهم كان يناديني أسوة بإحدى قصص عزيز نسين: الله كوروسون، بيزيم طورونيميزين ماشالاه فار! (ما شاء الله، حفيدنا فلته).

بداية الكتابة

● **الجديد:** متى بدأت الكتابة؟ لطالما تسلمت عن مسار الكتابة الذي يبدأ من الطفولة.

● **يوسف وقاص:** لا أعرف بالضبط متى بدأت الكتابة، إلا أن الذاكرة تقودني إلى أكثر من مرحلة، بدءاً من سن الطفولة، ثم مصادفة في وقت متأخر نسبياً، أي في عام 1996 عندما فزت بالجائزة الخاصة للجنة التحكيم في مسابقة أدبية مخصصة للكتاب المهاجرين المقيمين في إيطاليا. كانت قصتي الأولى باللغة الإيطالية تحمل عنوان "أنا مغربي بحرفي الكاف" (lo marokkino con due kappa)، تقمصت فيها شخصية مهاجر مغربي، لما رأيت من أحكام مسبقة بحق المهاجرين. ثم تابعت الكتابة على نفس المنوال، متوغلاً أكثر فأكثر في عالم المهاجرين وما يعانونه من مشاكل في حياتهم، بأسلوب غرائبي بعض الشيء وبسخرية سوداء، مقفياً بطريقة ما أسلوب الكاتب التركي الكبير عزيز نسين الذي كنت قد ترجمت له قصة قصيرة أثناء مرحلة الدراسة الإعدادية بعنوان "من الهواء والماء" (Havadan sudan) ونشرتها في مجلة "العربي" الكويتية.

المدينة والكاتب

● **الجديد:** المدينة التي ولدت فيها، حلب، لها إرث تاريخي مهم. يجب أن يكون لهذا الإرث العظيم تأثير كبير في كتاباتك. ما هو أكبر مصدر للإلهام لك؟ ما الذي يثيرك أكثر في مدينتك؟

● **يوسف وقاص:** تلعب المدن دائماً، بإرثها وتاريخها وعادات سكانها، دوراً مهماً في حياة كل كاتب. أذكر في هذا الصدد ما كتبه أورهان باموق عن إسطنبول، أو لوركا عن غرناطة. وحلب التي تعد واحدة من أقدم المدن المأهولة في العالم طورت مع الزمن مناخاً ثقافياً قوياً أدى إلى ولادة شعراء وكتاب وأطباء وفلكيين ومفكرين ساهموا في إغناء الأدب العربي، ومازالت أعمالهم متداولة على السنة الناس حتى اليوم، مثل أشعار أبي فراس الحمداني. وكان آخرهم خير الدين الأسدي، مؤلف "تاريخ القلم العربي"، وهي موسوعة في النحو استغرق في كتابتها ثلاثين عاماً، و"موسوعة حلب المقارنة" التي سجل فيها تراث حلب الثقافي من حكم وأمثال وعادات وأخبار. إرث هائل وتمساج لا مثيل له بين مختلف الحضارات التي شهدتها هذه المدينة، ابتداءً من العصور القديمة حتى زمننا الحاضر. قد لا أذكر حلب مباشرة في كتاباتي، إلا أنها حاضرة دائماً في كل ما أكتبه، برموز أو إشارات خفية، أو حتى في الأسلوب الذي هو في النهاية خلاصة ثقافة عريقة تراكمت عبر القرون ويمكن رؤية آثارها في العادات اليومية وفي تعدد

الكاتب يكرس أعماله للحديث عن المهاجرين مؤمناً بأن للأدب تأثيراً قوياً ومستداماً على الأفراد والمجتمع بشكل عام

إلا أنه من الضروري التوقف عند مصدر إلهامي الذي يعود بلا شك إلى مرحلة الدراسة الابتدائية، عندما كنت أصغي باهتمام كبير إلى قصص أمي القادمة من قرية صغيرة في جبال طوروس وجدي الذي كان قد حارب مع الجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى على الجبهة البلغارية والرومانية. كانت أمي تروي لنا قصصاً مدهشة عن الدببة الذين يطرقون باب منزلهم الريفي الموصد بعارضة خشبية متوسلين ببعض الطعام، أو حوريات النبع "Periler" اللاتي كن في منتهى اللطف ولا يتوانين عن المساعدة في حمل جرار الماء إلى البيوت.

ثم في أيام الجمعة، بعد الصلاة، كنت أذهب إلى منزل جدّي القريب من الجامع لأقرأ له بعض الفصول من كتاب "حضرتي علي جاتك" (حروب سيدنا علي، باللغة العثمانية القديمة). عندما كنت أصل بالقراءة إلى المقاطع التي تنقسم بالبطولات الخارقة للإمام علي كان جدّي يقفز من مكانه على الفرائش وهو يصرخ بحماس قل مثيلها: يا لله! دورمادان صالدر كهرمانيم، صالدر. (اهجم دون توقف يا بطلي، اهجم).

أكتب في أي وقت حتى في الأماكن المليئة بالضجيج

مسيرة غرائبية حيث، بالإضافة إلى الواقع الهلامي الذي يصعب إدراكه، تقوهم بطريقة لا مفر منها إلى التعامل مع ماضٍ غامض إلى حد ما، في سعي حثيث لإدراك جذور كل تلك الوحشية التي دفعته هو ومئات الآلاف من الأشخاص إلى ترك أرضهم والبحث عن ماوى في بلدان أخرى.

اختيار وقاص الكتابة باللغة الإيطالية نوع من التحدي لنفسه، كما أنه محاولة للوصول مباشرة إلى القارئ الإيطالي

السيناريو المربع الذي يتأرجح بين الحاضر والماضي يتغير من فصل إلى آخر، في بنية دائرية ومجزأة، مُحرفاً باستمرار دلالات وأداء الشخصيات، ومُسنداً في كل فصل أدواراً جديدة لهم تعكس حقبة تاريخية أو حدثاً راهناً. ميلاد دي كورينوس في معركة "ليباتو" التاريخية بين أسطول الرابطة الأوروبية والأسطول العثماني، أو ميلاد بوغدانوفيتش في الفصل الذي يروي حادثة صفقة سلاح لم تُسدّد قيمتها للمهربين الروس، هما مثالان فقط لهذه التحولات التي تهدف إلى تسليط الضوء على مجريات حرب ضعفت بشدة البنية النفسية الهشة لجميع الشخصيات. "نادية" (سوريا) مثال آخر لهذه التحولات المتكررة بين كونها ضحية ومحاولاتها المستمرة، وسط تقلبات عاصفة، للتخلص من المعاناة التي تعرّضت لها على أيدي الجلادين، كل ذلك ضمن بيئة لا تهمل جوهر السلوك الإنساني. أثناء هذه الرحلة التي تخفي في الظاهر مهمة سرية، وهي نفس سفارة جزر فيجي، تجد الشخصيات نفسها مضطرة أيضاً إلى التعامل مع كيانات إلهية، كما في الرحلة التي قام بها "ميلاد" و"نادية" إلى السماء السابعة، في الفصل الذي يروي اختلاف الأب باولو دالوليو (Paolo Dall'Olio) في مدينة الرقة، أو الهدف أحادي الجانب مع عزرائيل، ملك الموت الذي يدفع "ميلاد"، وبالجنوع إلى الحكايات الشعبية المتداولة في الشمال السوري، مثل قوب ريبكا السحري (وهي حكاية مستوحاة من الأصل من ملحمة غنائية تروي قصة الشاعر والمطرب التركي الجوّال عاشق كريم مع محبوبته أسلي، ابنة قس أرمني Kerem ile Asli)، تعزج الرواية أيضاً على القضية الفلسطينية التي تشكّل جزءاً لا يتجزأ من نضال الشعوب العربية لنيل الحرية وبناء مجتمع مدني يسوده العدل والقانون.

أجرت الحوار بيرين بيرسايفيلي فوت ونشرته مجلة "دنيا بيزيم" (Dünya Bizim) الإلكترونية في إسطنبول، والنص العربي ينشر بالاتفاق مع الكاتبة

الادب، لما له من تأثير قوي ومستدام على الأفراد والمجتمع بشكل عام. ولعل أفضل قصة كتبتها في هذا الشأن هي قصة "أبو بكر يذهب إلى الجنة"، التي أتمنى أن تُترجم وتجد طريقها إلى القارئ التركي أيضاً.

● **الجديد:** أعتقد أنه بالرغم من أنك لم تحصل على الجنسية الإيطالية بعد، فأنت تعتبر كاتباً إيطالياً من أصل سوري في بلد إقامتك لأنك تكتب قصصك باللغة الإيطالية. ومعظم هذه القصص تدور حول حياة المهاجرين في إيطاليا. لقد أتيت لنا الفرصة للسفر إلى إيطاليا من قبل وبقينا في منطقة بها كثافة عالية من المهاجرين الأفارقة. هل يمكننا التحدث قليلاً عن موقف المجتمع الإيطالي تجاه هؤلاء المهاجرين؟

● **يوسف وقاص:** نعم، هذا صحيح، لم أحصل بعد على الجنسية الإيطالية، وربما لن أحصل عليها أبداً لأسباب شتى، تعود في الأصل إلى اندفاعي المحموم في البدايات والأخطاء الكثيرة التي ارتكبتها أثناء مسيرتي العسيرة على هذه الدروب، سواء هنا أو في اليونان أو في يوغسلافيا. ويا للمفارقة، ما زلت اعتبر كاتباً إيطالياً من أصول سورية. واختياري الكتابة باللغة الإيطالية ينبع في الأصل من تحدٍ نفسي بالدرجة الأولى، والوصول مباشرة إلى القارئ الإيطالي بالدرجة الثانية. لقد راعني منذ البداية معاناة المهاجرين القادمين من مختلف دول العالم الثالث، وتلك الهوية الشاسعة التي تفصلهم عن السكان المحليين. كانت الكلمة، ومازالت، الوسيلة الأجدى والأقوى ليس لترجمة هذه المعاناة فقط وإنما للتعقّق في جذورها وإيقاظ ذلك الإحساس الذي فقده الأوروبيون بعد أن استعمروا العالم برمته تقريباً، وتمكنوا عبر استغلال موارد هذه الدول وخيراتها من الحصول على كل مكونات الرفاهية، رفاهية ما زالوا يرفضون تقاسمها مع الآخر، إلا من فئات لا يُسمن ولا يُغني عن جوع، يمتحنونه تحت شعارات مختلفة، إلا أنها سرعان ما تتجرّح أمام أول شعور بالخطر، خطر الإنسان القادم من بعيد، من ثقافة مختلفة، من عادات وتقاليد كانوا يتمتعون برؤيتها لدى زيارتهم لتلك البلدان كسياح أو منقّبين عن الآثار، إلا أنهم لا يريدون رؤيتها هنا، بينهم.

الطريق إلى برلين

● **الجديد:** روايتك "في الطريق إلى برلين" تسرد قصة مجموعة من السوريين الفارين من الحرب أثناء محاولتهم للوصول إلى برلين. أعتقد أنها من الأعمال الأدبية النادرة عن اللاجئين السوريين والمنشورة في إيطاليا، أليس كذلك؟

● **يوسف وقاص:** تتألف رواية "في الطريق إلى برلين" من كوابيس حقيقية عن الحرب يقود خلالها "ميلاد بن كنعان" بطل الرواية، وهو شخصية مصابة بازواجية حادة، مجموعة من اللاجئين الحرب نحو ألمانيا، إنها

أن تخلق مشاكل كثيرة، وهو ما جعلني أجد نفسي فجأة في عالم أبعد ما يكون عن تصوري؛ عالم شرس يسوده قانون الغاب، ولا مكان فيه للضعيف. غامرت، لكن دون أن أتخلّى عن قناعاتي، ففي هذه الرحلة الشائكة كان حماس جدّي ووداعة أمي يصاحباني دائماً، حتى أنني في اللحظات الحرجة -أي عندما كنت أقوم بعمل لا يتوافق مع تعاليمهما- كنت أعاني كثيراً من عذاب الضمير، وأجأ إلى وسائل غير محبذة للتخفيف من الآلام التي تعصر صدري. مسيرة طويلة، مليئة بإشكالات كثيرة، اضطرت بعدها للعودة إلى سوريا في عام 2005. لكن بعد اندلاع الثورة السلمية في عام 2011 وتحولها فيما بعد إلى حرب طاحنة عدت ثانية إلى إيطاليا في عام 2016، بعد أن قضيت ستة ونصف السنة في تركيا أعمل منادياً لسيارات الأجرة أمام فنادق أنطاليا، ثم سمسار عقارات في إسطنبول.

● **الجديد:** كانت غياتري شاكرافورتى سيبفالك تبحث عن إجابة للسؤال التالي في مقالها الشهيرة "أثمة صوت للإنسان المهتمّ؟"، إذا اعتبرنا اللاجئ مهتمّ اليوم، أليس الأدب هو العامل الأقوى في جعل أصوات المهتمّين مسوعة، تماماً كما في قصصك؟

● **يوسف وقاص:** كثيرة هي العوامل التي تدفع من لديه إحساس مرهف إلى الميل نحو الآخر وتناول هذا الموضوع بجدية، بل جعل ذلك محور كتاباته. كان لا بد لي في البداية أن ألتقي هؤلاء وأن أعيش همومهم وقصصهم عن قرب. كل واحد منا كان يبحث عن الأمل في عيون الآخرين. وعندما كانت الشرطة تأتي لطردنا من محطة القطار حيث كنا نأوي بحثاً عن مرقد أو مكان نحتمي فيه من برد الشتاء، كنا نتحول إلى بهائم مذعورة، تهرب في كل اتجاه، ولا تملك حتى الجراءة لم يد العون إلى رفيف السرب الذي كان يقاسمنا الخبز ليضع دقائق خلت.

سافرت من بلدتي الصغيرة القريبة من الحدود التركية، ووجدت نفسي فجأة المقارنة" التي سجل فيها تراث حلب الثقافي من حكم وأمثال وعادات وأخبار. إرث هائل وتمساج لا مثيل له بين مختلف الحضارات التي شهدتها هذه المدينة، ابتداءً من العصور القديمة حتى زمننا الحاضر. قد لا أذكر حلب مباشرة في كتاباتي، إلا أنها حاضرة دائماً في كل ما أكتبه، برموز أو إشارات خفية، أو حتى في الأسلوب الذي هو في النهاية خلاصة ثقافة عريقة تراكمت عبر القرون ويمكن رؤية آثارها في العادات اليومية وفي تعدد

الطرز المعمارية؛ إذ تجمع أنماطاً معمارية سلجوقية وبيزنطية إضافة إلى الطرز الملوكية والعثمانية والفرنسية، ممن تعاقبوا عليها على مر السنين، بالإضافة إلى الفنون، إذ لا يمكن ذكر الفن في كافة أرجاء البلاد العربية دون ذكر حلب. ورغم ابتعادي عنها لفترة طويلة إلا أن ارتباطي بها لم يتأثر أبداً، فهي المدينة التي تعرفت فيها على السينما والمسرح وركبت فيها لأول مرة الترام، ولم لا، تعرّفت في إحدى لياليها على الحب أيضاً، الذي جلب لي الأرق لأيام وأيام.

لكل مسافر إيثاكا

● **الجديد:** نعلم أنك عشت في إيطاليا لسنوات عديدة، هل يمكنك أن تحدثنا قليلاً عن رحلتك إلى إيطاليا؟

● **يوسف وقاص:** عندما أعود بذاكرتي إلى الوراء لا تلبث أن تتفرج شفقتي عن ابتسامته تجمع بين الرافة والإعجاب إلى حد ما، أمام ذلك الفتى الذي يمشي مشوياً بين أزقة ميلانو، وهو يقارن بفضول وإصرار مزج وجوه المارين بوجوه الأشخاص الذين لطالما تأملهم في اللوحات التي تعود إلى عصر النهضة الإيطالية، أو في أفلام الواقعية الجديدة لغيبلييني وأنطونيويني وباروليني، وغيرهم من المخرجين الإيطاليين الكبار. ورحلتي كان مبعثها ذلك الشغف للبحث عن الذات، أو بالأحرى تكوين الذات عبر عوالم جديدة، فكما نعرف، كلنا يحمل في داخله "إيثاكا" يخفيها عن الآخرين، الجزيرة المفقودة التي يكرس حياته للبحث عنها، ولا يتبرّد أحياناً في مواجهة المخاطر للعثور عليها بأي طريقة.

سافرت من بلدتي الصغيرة القريبة من الحدود التركية، ووجدت نفسي فجأة المقارنة" التي سجل فيها تراث حلب الثقافي من حكم وأمثال وعادات وأخبار. إرث هائل وتمساج لا مثيل له بين مختلف الحضارات التي شهدتها هذه المدينة، ابتداءً من العصور القديمة حتى زمننا الحاضر. قد لا أذكر حلب مباشرة في كتاباتي، إلا أنها حاضرة دائماً في كل ما أكتبه، برموز أو إشارات خفية، أو حتى في الأسلوب الذي هو في النهاية خلاصة ثقافة عريقة تراكمت عبر القرون ويمكن رؤية آثارها في العادات اليومية وفي تعدد

